مقدمـــة

بقلم: داڤيد موسى پيدكوك

إنجلترا ـ مايو ، ١٩٩٧

لأن المنتصرين فى نزاعات الماضى هم الذين حددوا روايات التاريخ السائدة بيننا اليوم. أصبح من الصعب كثيرا أن نحدد مصادر هذه النزاعات.

الصراع الدائم والمستمر فى أيرلندا الشمالية وفى فلسطين يمثل دليلا على صحة هذا الافتراض فى النزاعات المعاصرة، ويؤكد حماقة فرض تسويات سلام بدون تحقيق العدالة أولا. تشمل هذه الصعوبة أيضا العثور على مرويات محايدة عن ناپوليون وهروبه، وتقدم بينة أخرى على أنها شكلت لكى تتوافق مع الخط الرسمى الذى يلائم المستفيدين فى الصراع الذين لم يكونوا هم عامة الناس فى إنجلترا، وأيرلندا، وسكوتلاندا وويلز، بل بدلا من ذلك كانوا هم من ساندوا ويلينجتون والبرامج السلبية للدعاية السوداء التى منعت وصول صورة واضحة لإصلاحات ناپوليون إلى الفقراء والجماهير المقهورة فى المملكة المتحدة. الجماهير التى بعد انتصار ويلينجتون فى واترلو وتوليه رئاسة الوزراء، أصبحت فى حالة أسوأ مما كانت عليه قبل ذلك. الحصادى السيء من عام ١٨٢٩م ومتاعب النساجين فى شمال إنجلترا، بالإضافة إلى المعاناة القومية الشاملة، أشير إليها فى خطاب الملك أنها « . . . بعيدة عن سيطرة الهيئة التشريعية أو الإصلاح»، وترقد بوضوح أمام عتبة ويلينجتون. كرئيس للوزراء كان عليه أن يتحمل عبء الغضب العام، ومثل ناپوليون من قبله، أصبح هدفا لسخرية رسامى الكاريكاتير مثل ويليام هيث الذى رسمه، عام ١٨٣٠، وهو مغمض العينين: « يلعب دور الرجل الأعمى ـ مع الفقراء » التعليق أسفل الصورة يقول: «لايوجد أحد بهذا القدر من العمى مثل هذا الذى لا يرى».

الدرس المهم المستمد من هذا الوضع هو فى الحقيقة أن جميع المرابين فى مدينة لندن، مثل بارينج وروثتشيلد وجميع أعضاء مجلس بنك إنجلترا، نجحوا فى استخدام ويلنجتون، ونيلسون، والقوات البريطانية لمنع أى تأثير لسياسات ناپوليون. أعتقد أن اللورد أكتون كان هو الذى تبنى فى وقت لاحق فى القرن التاسع عشر، رؤية ناپوليون مع رؤى داڤيد ريكاردو وإبراهام لينكولن - أن العالم لن يتحرر من الحروب إلا بعد أن تنقلب موائد صيارفة المال وإلى الأبد.

لسوء الحظ، كما يوضح لنا تاريخ الحروب، ذهب نداؤه هباء؛ لأنهم نجحوا من وقت لآخر فى جعل أمة تحارب أمة أخرى، بدلا من أن تحاربهم هم وسياساتهم المالية المدمرة. تركونا لكى نتأمل هذه الحقيقة، القضية التى توارت طوال القرون الماضية. والتى ينبغى إدراكها عاجلا أو آجلا، هى أن الشعب عليه أن يقاتل ضد البنوك.

كثير من الأساطير التى أنشأتها الوكالة البريطانية للدعاية السوداء، دمرتها بشدة مقالة كتبها چيس ماكرى فى مجلة الاكتشاف «Foecus» فى عددها الصادر فى أپريل ١٩٩٦.

الأسطورة الأولى هى أن ناپوليون كان طاغية فاسدا ليس لديه أى اهتمام بشعبه. « من المغرى أن نستنتج، كتب يقول: أن نرى بوناپارت وهو ينفق الملايين على آلة الحرب، يفعل القليل من أجل عامة الفرنسيين. الحقيقة أن إصلاحاته القانونية والدستورية كانت تسبق زمانها بقرن كامل. أحد أعمال حكمه كان وضعه لدستور ثورى، ثلاثة مجالس منتخبة كانت تصوت لإصدار القوانين الجديدة، ومحكمة استئناف مستقلة، وثلاثة مستشارين يتم انتخابهم كل ثلاثة أعوام. طرح الدستور أيضا لاستفتاء قومى، وأيدته أغلبية ساحقة فى ٣٫٠١١٫٠٠٧ صوت مقابل ١٫٥٦٢ صوتا. تشريع ناپوليونى آخر دائم هو القانون المدنى - الذى يعرف أيضا أنه قانون ناپوليون - الذى ما زال يسود قوانين فرنسا، وبلچيكا، ولوكسمبورج. الأسس التى يفرضها هى المساواة أمام القانون، وإلغاء النظام الإقطاعى، وحماية الممتلكات الخاصة، وحرية الرأى، وحق الطلاق. أدخل ناپوليون فقرة تلزم الآباء بتغذية الأبناء إذا احتاجوا إلى ذلك - حتى إذا كانوا من

البالغين ـ لقد أثنى عن عزمه أن يعطى الأجداد حق حماية الأحفاد فى حالة سوء معاملة الآباء. **هذا لن يكون مذهلا بالنسبة للمسلمين، إذا ما أدركوا أن ٩٦ ٪ من مواد القانون المدنى (قانون ناپوليون)، استمدت من الشريعة الإسلامية المبنية على أساس فقه الإمام مالك.**

استمر ماكرى يفند بنجاح عددا آخر من الأساطير، مثلا أسطورة تقول: إن ناپوليون كان مخادعا وكاذبا، لايستطيع أحد أن يثق به « وجهة النظر السائدة هى أن ناپوليون كان عدوانيا مزق جميع المعاهدات ورفض صنع السلام. ولكن الحقيقة هى أن المخادعين الحقيقيين كانوا هم بريطانيا وحلفاءها. لقد سعى ناپوليون مرارا إلى تحقيق السلام، ولكن ملوك أوروپا هم الذين رفضوه، واعتبروا أن ناپوليون غير جدير بالثقة؛ لأنهم يحتقرونه ويخشون أن تكون ثورة فرنسا للتحول إلى الجمهورية معدية». كما كتب السياسى الهويجى (عضو فى حزب بريطانى يؤيد الإصلاح عرف بعد ذلك بحزب الأحرار) إدموند بيرك إلى وزير الخارجية ويليام جرينڤيل : «ليست عداوة فرنسا، بل صداقتها، هى الأمر المزعج حقا. تعاملها ومثلها وانتشار مبادئها أبشع كثيرا من أسلحتها». أسطورة رئيسية أخرى هى أن إصلاحاته لم تحقق أى شىء : « خطأ آخر: معظمها مازال يعمل جيدا حتى يومنا الحاضر، ناپوليون فتح المدارس الابتدائية وأسس نظام الليسيه الحديث، أنشأ الجامعات الجديدة، وعشرات من مدارس القانون وكليات تدريب المدرسين. الأموال التى أنفقت على التعليم فى عهد إمبراطورية ناپوليون كانت أكثر مما أنفق على أى شىء آخر ـ وتم هذا فى زمن حرب دائمة ـ مدهش أن « إرهابيًا يعقوبيًا» قام بتشجيع إنشاء المدارس الخاصة، التى فاق عددها عدد المدارس التى أنشأتها الدولة الآن، نظام التعليم الفرنسى يسبق كثيرا نظام تعليم إنجلترا .

كل الشكر لناپوليون، الرجل المفكر .

عن موضوع نيلسون وويلنجتون، قال ماكرى: «ربما يكون نيلسون قد مات بطلا فى تراڤالجار عام ١٨٠٥ ، ولكن نصره أخّر حرية أوروپا قرنا كاملا» رغم أنهما قائدان ذكيان، كلاهما كان قد جانب الصواب. بضرب ناپوليون على الأرض والبحر، حرموا العالم من « الازدهار والحرية السياسية التى كان يمكن أن يتمتع بهما تحت حكمه».

أمثلة أخرى للدعاية السلبية ضد ناپوليون توجد فى المرجع المهم الذى كتبه چون أشتون: «أعمال الكاريكاتور والهجاء الإنجليزية عن ناپوليون الأول». ديباجة الطبعة التى صدرت عام ١٨٨٨ حملت الاعتراف التالى: «معظم الكاريكاتورات كانت هزلية، والأخرى سخيفة أوحاقدة، وبعضها فظ لايستحق إعادة نشره». خاصة مايتعلق بأجداد ناپوليون، الذين قال أشتون عنهم: «لقد أسهبت كثيرا فى الحديث عن أجداده؛ لأن الهجائين الإنجليز لم يقولوا الصدق عن هذا الموضوع - لقد انحرفوا كثيرا بحماس اللحظة، وانقادوا إلى رغبات الغوغاء».

الهجائون مثل چورچ كرويكشانك، الذى منح حرية مطلقة لرسم كاريكاتورات ناپوليون، انتقل من وكزات السخرية إلى الاعتراف، فى «تمثاله لناپوليون» هو أيضا انقاد إلى «رغبات الغوغاء»: أما أنا الذى حولته إلى هيكل عظمى غير ناضج، ونزعت عنه عبقريته من قبعته إلى حذائه، فإننى أنجزت نقط مبدأ تبنيته منذ صباى، لأننى أذكر الوقت الذى لم أشعر فيه بسعادة وطنية فى اضطهاد عدو إنجلترا الكبير. إن كان هو أقل من ذلك، سوف أشعر بوخز الضمير لقسوتى، اقتفيت أثره عبر الجليد وخلال النيران، فى الفيضان وفى الميدان، أهنته وحقرته وسخرت منه فى كل مكان، طوال هذا الوقت، مع ذلك كان هو يسير فوق الأهرامات وفوق جبال الألب، مثل الصبية فوق الأعمدة، ويلعب القفزية(*) (لعبة ينحنى فيها واحد ويقفز الآخر على ظهره) مع ملوك أوروپا، ويركل تاجا مع كل قفزة يقوم بها.

بالتباين مع ذلك، كتاب كريستيان تشيرفيلز هذا يحاول أن يقدم لنا سيرة أكثر توازنا عن ناپوليون الأول، تمثل أهمية خاصة للمسلمين لما بها من روايات شهود العيان للأحداث والمناقشات التى حدثت منذ حوالى ٢٠٠ سنة مضت بين ناپوليون وشيوخ الأزهر فى القاهرة، والتى تساعدنا على تكوين تقييم أكثر دقة عن مشاعره الدينية، وحساسياته، وسياساته الرسمية حول الدين، التى بعبارة معتدلة، كانت عكس خليط الافتراءات السخيفة الحاقدة، والفظة التى كانت مع استثناءات قليلة، هى مخزون سلع معظم المؤرخين والمعلقين البريطانيين منذ ذلك الحين وإلى وقتنا هذا. من المدهش أن هذا الكتاب الذى ظهر لأول مرة عام ١٩١٤ ميلادية، لم

(*) نطة الإنجليز.

يستخدم بفاعلية أكثر لتصحيح سجل التاريخ. وأيضا لم يبذل العرب الذين يعيشون تحت حكم الاستعمار الفرنسى، جهودًا أكبر لاستخدام محتوياته لنزع أسلحة من يستعمرونهم. أسس معظم - إن لم تكن جميع - الصراعات المحلية والدولية كانت نتيجة للمظالم الاقتصادية التى تتدفق عبر الحدود القومية. سجلات الأرشيف توضح أن ناپوليون أدرك ذلك، خاصة كيف أن ذلك أثر على العلاقة بين فرنسا وإنجلترا، وكيف أن نظام إنجلترا المصرفى شجع على انتشارها فى المحيط الدولى ليبعدوا الأنظار عن أعمالهم الخبيثة. بنوك الاحتياط والمصرفيون هم وحدهم الذين استفادوا من اقتصاديات: أفقر جارك، التى سادت العالم منذ إنشاء بنك إنجلترا عام ١٦٩٤. فى الماضى، كما هو الحال الآن، نجح هذا النظام دائما فى تحويل الأنظار بعيدا عن الدور الذى يلعبه فى خلق عوامل العجز المالى، التى سببت حروب التجارة، التى تصاعدت إلى شتى أنواع القتال. السمة المميزة لنظام إنجلترا المصرفى كانت بإلقاء اللوم على ضحاياه، أو على عدو خارجى، بسبب الصعوبات التى سببتها سياساته، أدرك ناپوليون أن المشاكل التى أزعجت أوروپا فى ذاك الوقت - مثل مشاكل الزمن الحاضر - كانت نتيجة لتضخم الديون بسبب الفوائد التى تفرض على الديون، وهو ما جعله يتخذ خطوات نحو إزالتها. فى هذا الموضوع وحده، وقف ناپوليون رأسا وكتفا أعلى من ويلنجتون الذى كان آلة فى يد آل روتشيلد. عندما عرضوا عليه رسما بيانيا عن إعادة سداد الدين بسبب الفوائد والفوائد المركبة، قيل إن ناپوليون علق عليه قائلا: **«من المدهش أن وحش الفوائد هذا لم يبتلع الإنسانية جميعها، كان يمكن له أن يفعل ذلك منذ وقت طويل إن لم تعترضه سموم الإفلاس والثورة»**. هذا يساعد على تفسير اتفاقه مع مجلس اليهود الأعلى (السانهيدرين) بفرنسا الذى تم من خلاله توقف اليهود عن تقاضى الربا على القروض. فى التاسع من شهر فبراير عام ١٨٠٧، اجتمع الحاخام داڤيد سينزهايم مع ٤٦ حبرًا ومع ٢٥ من عامة الناس فى «فندق المدينة» وأكد المجتمعون موافقتهم على القرار الذى اتخذه حبرهم. **كما ذكرنا سابقا يجب أن نتذكر دائما أن «قانون ناپوليون (القانون المدنى)»، الذى كان له تأثير عملى، ساعد على تحرير يهود أوروپا من العبودية، كان إسلاميا بالكامل تقريبا**. علاوة على ذلك، لايوجد شك أن فترة الأعوام الستمائة التى قضاها الإسلام فى إسپانيا، والتى يسميها

اليهود «عصرهم الذهبى»، التى كان اليهود، والمسيحيون والمسلمون يعيشون أثناءها فى توافق، يمكن عزوها إلى غياب الفوائد الربوية على المعاملات المالية. رغم أن «الصراع كان دائما يصاحب نظام الفوائد، إلاأن الناس - قليلا ما يذكرون.

من وجهة النظر اليهودو / مسيحية، كراهية ناپوليون يمكن أن تفهم بوضوح - خاصة فى ضوء تحوله الرسمى إلى الإسلام فى نهاية القرن الثامن عشر. عقب ذلك، قام رسام الكاريكاتور، چيمس جيللارى، بتصوره مرتديا عباءة، مع تعليق يقول: **« دين ديمقراطى - ناپوليون أصبح تركيا»**، هذا قد يكون رد فعل للعناوين الرسمية فى صحف « الجازيت ناشيونال» أو «المونتير ينيڤيرسيل» التى أعلنت تحول ناپوليون إلى الإسلام يوم ٦ ديسمبر عام ١٧٩٨، واتخاذه إسم « على بوناپارت». هذا يوصلنا إلى موضوع الجدل. المهم حول محتويات هذا الكتاب. يتضح من قراءة الديباجة التى كتبها الشريف عبد الحكيم، أنه بالتأكيد كان يعلق على فقرات مختارة دون دراية ببقية محتويات الكتاب، لأنه يتحدث ببساطة عن «حب» ناپوليون للإسلام وعن « إقامته المباركة» بين المسلمين. من الناحية الأخرى لدينا موقف ممن يدعون أنهم مسلمون مطلعون، الذين حاولوا شجب تحوله إلى الإسلام باعتباره عملية تجميلية بحتة: «مقامرة نفعية لمغامر ذكى ساخر، يعتنق عند الضرورة أى عقيدة يرى أنها لازمة لتحقيق أهدافه». متحدثا من تجربتى الشخصية كسياسى أوروپى نشيط تحول إلى الإسلام، نشر هذه الحقيقة كان لايمكن له أن يساعد ناپوليون سياسيا؛ لأنه يثير القوى المتباينة للإلحاد ولرأس المال إلى تحالف حماسى مؤثر له مصادر تمويل غير محدودة - لتعبئة قدر كاف من الرجال والمواد والدعاية السوداء لإفساد إصلاحاته. إحدى العقبات العثرة التى تعيق المسلمين وهم يدرسون هذا الكتاب، ويحولونه إلى سلاح مفيد، يبرز من بيان طائش لناپوليون تحدث فيه عن اعتقاده أنه قد قدر له أن ينجز انتصارات حربية أعظم من تلك التى أنجزها النبى محمد ﷺ، الرجل الذى يبجله كثيرا: (انظر الوثيقة رقم ٣٨).

علاوة على ذلك، ناپوليون كان يعتقد أنه (مثل المهدى)، قدر عليه أن يلعب دورا رئيسيا لإعادة إحياء الإسلام. لم يكن هذا أمرا غير طبيعى بالنسبة للمتحمسين ممن تحولوا إلى الإسلام. حملته الروسية، طبقا لماكنيرويلسون، لم تكن عملا طائشا غير مدروس، بل كانت وضعا فرض عليه من خلال خيانة

غادرة. من الأفضل أن يتذكر المسلمون أن المهدى السودانى الذى اجتذب عددا ضخما من الأتباع، لايمكن أن يكون الإنسان الذى قدر له أن يعيد إحياء الإسلام، إذ لم تتوفر لديه السمات التى جاءت فى أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة. لم يكن أمرا غير مألوف، حتى بين أنبياء الله الملهمين - عليهم السلام - جميعا، أن تدخل بعض عناصر الأمنيات الشخصية فى الرسالات التى عهد الله إليهم بها، أمر وضح تماما فى الآية ٥٢ من السورة ٢٢ [الحج] من القرآن:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . . .

ناپوليون، مع ذلك، هو مجرد إنسان. قيل إن ذلك - ذكرى ناپوليون بقلم المحلل والناقد البريطانى، ويليام هازليت (١٧٧٨ - ١٨٣٠) - هو تمجيد لائق لبوناپارت، الذى يجب أن ينظر إليه، على أى حال، باعتباره إنسانا مستنيرا، خاصة إذا قورن بأمثال نيلسون، وويلينجتون، آل روتشيلد:

« وضع قدمه على رقاب جميع الملوك الذين استعبدوا الناس : ، وأسرف فى قتل ملايين العبيد المأجورين، الذين جاءوا بأوامر من أسيادهم لينكروا حق الآخرين فى الحرية. صرح العظمة والمجد الذى بناه ارتفع عاليا على الأرض باستعارة ما فقدته الإنسانية مرة تلو أخرى - بنيت جبهته الرائعة على مخلفات الآمال المحطمة والإيمان الممزق لأعداء الإنسانية. إذا لم يكن قد استطاع أن يحقق الحرية، والسلام، والسعادة لدولته، فهو قد جعلها رعبا لأولئك الذين يغرسون النزاعات المدنية ويثيرون الحروب الأجنبية، ويمنعهم من الاستمتاع بهذه النعم. أولئك الذين سحقوا الحرية بأقدامهم لم يستطيعوا على الأقل، أن ينتصروا بيأسها وخجلها، بل أصبحوا هم أنفسهم أهدافا للرثاء والسخرية. إصرارهم على البقاء فى ذروة الخطأ، جلب عليهم، تكرار الهزائم والكوارث، والرعب والاعتداءات المتراكمة التى أعدتها كبرياؤهم المحطمة وحقدهم المحبط ضد الآخرين، عادت عليهم عقابا عادلا مؤلما: كدسوا الفحم الملتهب فوق رؤوسهم: شربوا عميقا وطويلا مرارة كأس السم الذى أعدوه للآخرين، التدمير الذى هددوا به أى شعب يجرؤ أن يقول: إنه حر،

تدلى معلقا فوق رؤوسهم كجرف معد للسقوط عليهم وتدميرهم . وقفوا قليلا حائرين، ذاهلين عن أهدافهم الشريرة، وشعروا بضخامة أعباء الحرية ، وعظم متاعب قوتها. تخلصوا من عجرفة أبهة الدولة الملكية إلى ضآلتهم كرجال عاديين، هزموا فى انتقامهم، ضيعوا فريستهم، عريت خططهم من غرور كبريائهم، لم يبق لديهم شيء سوى حقدهم المشوه، لايجرؤون أن ينطقوا لفظا أو يحركوا إصبعا، سادة الأرض الذين كانوا ينظرون إلى الناس كأنهم فصيلة سفلية، ولدوا لكى يستخدموهم، ويستعبدوهم، يوجهون نظرة توسل إلى الناس، وبقلوب رعديدة وألسنة خادعة، يذكرون اسم الحرية؛ ليضعوا الناس ثانية فى قبضة يدهم الدنسة؛ لكى يخنقوا اسم الحرية إلى الأبد».

[دون ريب، إشارة إلى من هم مثل لافايت، المصرفى الليبرالى الذى قال لدوق أورليانز، عقب ثورة يوليو، وهو فى طريقه إلى فندق المدينة: من الآن فصاعدا، سوف يسيطر المصرفيون].

« قاوم انتهاكات الشرعية ـ هذه القوة الساحقة ، هذا الوحش الضارى، الذى كان يسرع الخطى نحو فريسته فوق أجساد وعقول الشعب جميعه، يضع خاتما فى أنفه، يستنشق اللهب والدماء ـ وانتصر، لعب بالتيجان والصولجانات ولبسها هو، وروض الكبرياء المتوجة وجعلها أضحوكة للأمم، هو رجل واحد، فعل هذا، وحينما كان يفعل ذلك، كان فى نفس الوقت ينقذ البشرية من العار الأخير. إذا كان ناپوليون فاتحا منتصرا ، فقد انتصر على المؤامرة الكبرى للملوك ضد حق الجنس البشرى أن يكون حرا. إذا كان هو طموحًا فإن عظمته لم تبن فقط على التسليم غير المشروط بحقوق الإنسان ، ولكن، مع ناپوليون ، ارتفع أيضا مجد الإنسان عاليا. إذا كان مستبدا وطاغية، فأولاً فرنسا كانت دولة محاصرة عسكريًا، لا يمكنها أن تدافع عن نفسها بطلقات ورقية من العقل؛ ثانيا، ولكن رئيسيا، هو لم يكن ولا يمكن أن يصبح، طاغية بحق إلهى، الطغيان فيه لم يكن مقدسا ، ولم يكن أبديا، لم يكن مرتبطا غريزيا بعصبة صداقة مع طغاة آخرين: لم تجزها جميع قوانين الدين والأخلاق».

«كتاب ناپوليون والإسلام» : يقدم مساهمة كبرى فى فهم شخصية تعلقت ـ بوضوح ـ بالقرآن ورسالته ورسوله ﷺ بأكثر مما يُوصف بأنه اهتمام عابر سواء كان ناپوليون، أو لم يكن، يصوم رمضان ويؤدى الصلوات الخمس اليومية، ذلك له فى الحقيقة أهمية ثانوية (يوجد آلاف كثيرون ممن يقولون إنهم مسلمون وهم لايفعلون ذلك) ما له أهمية، مع ذلك، هو أنه أدرك بصدق أن الإسلام أسمى من أى دين فى أى مكان آخر، وأخذ الكثير منه لاستخدامه الذاتى، ولبناء إمبراطوريته. كما يقول القرآن: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] علاوة على ذلك، استنتج بصدق أن دين إبراهيم سوف يعاد إحياؤه من خلال علومه. تشير التطورات الحالية فى ماليزيا وأجزاء أخرى من العالم الإسلامى إلى أن المسلمين بدأوا يدركون هذه الحقيقة المهمة. لم يعودوا يكتفون بتكرار الابتهالات عن أمجاد الماضى ـ بدأوا الآن يتأملون نصائح الرسول، خاصة عندما قال: «اطلبوا العلم ولو فى الصين»(*). ونحن الآن فى بداية قرن جديد من يبرز لإحياء ثروات الإسلام سوف يحسن إذا تأمل رؤية ناپوليون:

« أرجو ألايكون قد فات الوقت الذى أستطيع فيه أن أوحد جميع الرجال العاقلين والمثقفين فى الدولة، وأن أنشئ نظام حكم متناسق، مؤسس على مبادئ القرآن، التى هى وحدها الصادقة، والتى يمكنها أن تقود الناس إلى السعادة . . . المسيحية تبشر فقط بالعبودية والتبعية . . . » (انظر الباب الرابع ـ رسالة ناپوليون الأول ، رقم ٣ـ١٤٨) .

* * *

(*) [موضوع] جامع بيان العلم ١/ ٨٢٧، وقال الألبانى فى «ضعيف الجامع»: «موضوع»

ديباجـــة

بقلم: الشريف عبد الحكيم

باريس - ١٠ / ٤ / ١٩١٤

الأمة الوحيدة فى التاريخ التى نشدت، لا أن تسيطر على الإسلام، بل أن تتحالف معه لكى تمدين بقية العالم ، كانت، دون ريب، هى فرنسا .

هذه السياسة شكلت أثناء حكم فرانسوا الأول، وقام نابوليون بتنفيذها . ولكن أعاق ذلك الخلافات اللاهوتية التى لم تتوقف عن تعقيد طموحات السلالات الحاكمة . من ناحية كانت توجد عقيدة الثالوث المقدس المسيحية، وتوجد على الناحية الأخرى عقيدة التوحيد الإسلامية .

الآن، وضحت المشكلة، لم تعد موضوع الحملات الصليبية بأى معنى لها . بما أن العالم الإسلامى ما زال منقسما سياسيا، فقد ابتلعته القوى الأوروبية . ما هو الموقف الذى سوف تتخذه القوى الأوروبية، خاصة فرنسا؟

مع احترامها لعقائدهم ومصالحهم ، إما أن تقبل المسلمين كمواطنين لقوة الحماية، أو أن تعتبرهم كما مهملا؟ توجد فى الحقيقة سياستان فقط : إما أن تعامل هؤلاء المسلمين كشعوب مهزومة محتلة، أو أن تنظر إليهم كأطفال تبتهم .

السياسة الأولى محفوفة بالمخاطر، إنها تعنى إقرار التفرقة والامتيازات التى تخلق فقط عدم الرضا مع جميع عواقبه .

السياسة الثانية - سياسة التبنى مبنية ببساطة على أساس العدل، بينما لاترتكز السياسة الأولى إلا على الاستبداد . أليست سياسة الإنصاف هى التى سوف تثبت صلاحيتها وبقاءها؟

جاءت لحظة الاختيار، فأى قرار سوف تأخذه فرنسا؟

يبدو لى أن طرح هذا السؤال يستلزم الإجابة عليه. أولئك الذين مثلى يعرفون بلدهم فرنسا ويحبونها، لايستطيعون أن يروا احتمال وجود أى تردد تجاه هذا الموضوع لدى سلالة الثورة الكبرى.

فى شمال إفريقيا، حققت فرنسا الهدف الذى لاحقته زمنا طويلا. هى الآن تضم داخل مستعمراتها عددا من السكان المسلمين يساوى على أقل تقدير عدد مواطنيها أنفسهم. بأى سياسة تحوى هذه الحشود، وكيف ترعاهم؟

لهذا الأمر، كرس المؤلف نفسه، باختيار ذاتى، ولكنه أذعن لسلطة كانت مبجلة فى العالم الإسلامى، وفى أوروبا.

بعد أن أحضره قدره إلى مصر، أقام ناپوليون علاقة وئام، ليس فقط مع سلطان القسطنطينية، بل أيضا مع شريف مكة، وسلطان دارفور و«بيك» تونس، وتراسل مع صاحب تيپو، وهكذا أصبح العالم الإسلامى جميعه تحت أنظاره.

بالنسبة له، إذا تحدثنا بصدق، لم يكن الأمر موضوع غزو، بل موضوع تحالفات، وهذا يفسر سياسته فى مصر وجميع بلاغاته اللاحقة. كان مشرعا بقدر ما كان محاربا، حاول أن يتغلغل فى الإسلام، ويتعمق فى فهمه أكثر من هذا، هو أحب الإسلام، وأصبح واحدا منا.

أدعو الله أن يكون هذا الكتاب تذكرة مفيدة لإخوانى المسلمين لإقامة ناپوليون المباركة بينهم، وأن يكون نموذجا للفرنسيين الذين يقودون الآن سياسة جزء كبير من العالم الإسلامى.

هذا هو هدف الكتاب.

عبد الحكيم ١٠ / ٤ / ١٩١٤ - پاريس

ملاحظة خاصة:

موضوع هذه الدراسة هو فلسفى واجتماعى معا. نحن نبحث النظريات عن الإسلام التى وضعها وطبقها بوناپارت، أثناء حملته المصرية. تملكت فكرة الإسلام عقل الإمبراطور إلى درجة كبيرة ، ولكن تلك المسألة تقع خارج مجال هذه الدراسة، واستطعنا فقط أن نشير إليها بإيجاز .

البيانات التاريخية، التى جمعت تراكمت، وكان علينا أن نختار أكثر النصوص دقة، مهما يكن اتجاهها الظاهر .

يبدو أن هذه الوثائق تؤثر على ـ ليس فقط ـ ماضى العلاقات الفرنسية الإسلامية، بل أيضًا مستقبل هذه العلاقات .

obeikandl.com